الدين والحياة

للأستاذ حامد محمود الزفرى

ألست تذكر يوم كنا نبدى الإعجاب والحب لسلوك ذلك الرجل الانجليزى الذى . . كان فى زيارتى . إنه صاحب أدب جم وسمو خلق رفيع . إنه يعطف بحق على قضايا الحرية للشعوب والسلام للعالم .

إننى يوم كنت أتلقى العلم والدراسة فى لندن لم أر إلا نماذج من هذه الشخصيات صاحبة السلوك السوى ، والأدب الاجتماعى ، والحرية والنقد والحقوق الكاملة لكل مواطن يزاولها فى حياته الخاصة والعامة ، وفى مجال السياسة والتوجيه الدستورى .

إن الديمقراطية الانجليزية تقوم فى نفس كل فرد ويحيا بها الشعب . أذكر على سبيل المثال أنه فى حرب السويس يوم ركب إيدن رأسه قمنا نحن الطلبة الشرقيين بكتابة منشورات ننتقد فيها هذه التصرفات المتعجرفة فى عصر المدنية والحق أن كثيراً من السادة الأساتذة فى جامعتنا كانوا يشاركوننا الشعور بل كنا نلاحظ تأثرهم النفسى ومعاركهم المنطقية العنيفة ضد هذه الحرب الغاشمة .

ثم إن هذا السلوك السوى للفرد داخل فريقه وخارجها فى القطاعات الجماعية كالسياسة والتصنيع والإنتاج والتصوير والحقوق والحريات هـذا الضرب من القيادات الأوربية يصل بنا إلى غايات نبيلة وأهداف سعيدة رغم وجود الكنبسة والملكية فى هـذا البلد الديمقراطى ولكن ليست لهما إلا حق الوجود الأسمى والرمزى فقط .

ومن ذلك لا يكون ثمة حاجة إلى ربط السلوك الفردى والجماعى بالتنظيم الدينى . قلت نعم ياصديقى . إن الدين ليس هو بقايا النزعات المهلهلة ولا آراء البابوات الذين

أحرقوا المفكرين وأقاموا محاكم التفتيش وحجروا على العقل وليس هو إطلاق البخور وسبحات الترانيم وأصوات الترتيل .

الدين له طرق واضحة ومناهج محددة فى كتاب محفوظ لا يبلى على الدهر ثم هو ليس مفروضا من الخارج حتى يتنافى مع اتجاهات القوى البشرية البناءة فى حقل الوجود العام . بل هو تنظيم لهذه القوى حتى يعم خيرها وتكون السعادة الأبدية ، والرفاهية الوجودية .

إننا حينما ننظر إلى الإنسان فى بدء عهده بالأرض وقد رأى من حوله وفوقه ما رأى . وقارن بين ما كان وما آل إليه كل شىء حوله . فى هذا الموقف الذى أطلق فيه لفطرته الإنطلاق لم يرد من أن شيئاً عظيما وراءها فآمن بها وإن هو قد خانه الحظ فى الوصول إلى الحق .

وكلنا اليوم نؤمن بشىء عظيم وراء أشياء الوجود وإن بدت الطبيعة فى نظر الطبيعيين أو الدهر فى رأى الدهريين أو الوجود الإنسانى فى كليته فى نظر الوجوديين الخ هذه النزعات وما أشبه اليوم بالبارحة . إن هذا السلوك الإيمانى بقوى الطبيعة أو حقوق الإنسان أو الدهر هو اتجاه فطرى وغريزة الوجدان البشرى . وتاريخ الأديان حافل بالآلهة الأرضية والأجرام السماوية والحيوانات والأوهام والخرافات . والتاريخ الحديث يعج بالنحل الإيمانية المتعددة .

وكل هذا إن دل على شىء فإنما يدل على أصالة الإيمان المطلق فى النفس ، والاتجاه الاعتقادى فى البشر . وما ذلك إلا إستجابة لطبيعة الوجود . ومن هنا لم تتخل السماء عن إرشاد الإنسان وتنظيم هذه الاستجابة .

« يا أيها الناس أعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون » أيها الإنسان الباحث عن موقفك تجاه أحداث الحياة ، يا بنى آدم . الضاربين فى مجاهل الوجود لتصلوا أنفسكم برب هذا الوجود . . أيها الناس جميعا . أعبدوا ربكم . صلوا أنفسكم به . وكونوا له عباداً . هو وحده فقط . ذلك لأنه هو الذى خلقكم وأنشأكم بالوسائل الطبيعية والطرق الإلهية . والدقة الربانية . وكذلك الذين من قبلكم كانوا على هذا الضرب من الايجاد . وبهذا تتقون الوقوع فى خطأ الاعتقاد

المردى والفعل المزرى والعمل المتخبط والسلوك الضال . إن هذا التنظيم لغريزة الإيمان وقاية من الزلل وعصمة من الشطط . إنه أمن قلبي للاعتقاد والربط المتين بين الإنسان وإله واحد . « أحد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد » ليس كمثله شيء وهو السميع البصير . وعن هذا الأمن القلبي فى العقيدة ينبع الأمن على المال بطريقة تنظيمية معينة . فى الكسب والانفاق . والربح والتجارة وأمن على العقل باتباع الكشف عن قواه وتوجيهها للبحث وصيانته عن كل ما يعرضه للانكماش والتدهور كالخمر مثلا . وأمن فى القول والفعل والاتجاه والحياة والوجود .

ليس إيمانا شيوعياً بالمال والثورة وإراقة الدماء فى سبيل حماية رأى أو آراء لأفراد ، وليس إيمانا وجودياً بالإنسان وشهواته وإطلاق قواه الشريرة ، وإغفال جانبه الوجدانى القلبي فى مجال الألوهية وكشف الملكوت ولا إيمانا مسيحياً تتقاذفه أهواء القسس وآراء البابوات وآيات الأناجيل المتعددة المتضاربة فى كثير من الأحيان. وليس إيمانا ديمقراطيا فى حقل التعامل البسيط لقوى الإنسان الهائلة ، وعلى الأخص الجانب السياسى فقط . وليس إيمانا يهوديا يقوم على التعصب والجنس والمادة والجهالة الشريرة .

إنما نتائج هذا الإيمان الضال فى شتى الاتجاهات قديمة وحديثة لا تورث البشرية إلا الحرب والدمار والخراب . ثم أرنى يا صديقى نتيجة عادت على الإنسان بالرفاهية والسعادة من وراء هذا الإيمان الضال .

لقد رأينا إيمان المغول وعقيدتهم (الشومانية) علوية وسفلية إنما كانت سبباً فى ضياع هذه القوى الهائلة لجماعة ضخمة من الناس فلم تنجب حضارة ولم تلد مدنية . بل من المعروف أن الدين الإسلامى رغم أنه كان مغزوا من المغول أنفسهم حينذاك استطاع أن يتسرب إلى هذه القلوب الخشنة فيرققها . والنفوس الجافة فينعشها ، وتقوم الدولة التركية التى انحدرت من هؤلاء المغول على أساسه .

وفى العصر الحديث لم نر أثراً لهذا الإيمان الشيوعى أو الوجودى إلا الهزة النفسية العنيفة التى مزقت أوصال النفوس وأزعجت القلوب وجعلت الأعصاب متوترة والحروب الباردة والساخنة قائمة . أما هذه المظاهر المدنية أو الصورة الحضارية الآن

فإن جذورها ترجع إلى نفحة الإيمان الإسلامى التى هبت على القرب من شواطىء إيطاليا وصقلية والأندلس وجنوب فرنسا وأواسط أوربا فى فينا إن هذه المدنية المعاصرة ليست من صنع الإيمان بعقائد اليوم . بل هى نتيجة الكشوف العلمية والاتجاه الصناعى والتحرر العقلى الذى دفع البشرية إليه إيمان المسلمين فى القرون الوسطى . لذلك نلاحظ أنها بعد أن خلت من الإيمان صارت حافة صاهدة لا روح ولا ريحان لها . والربط بين المدنية والايمان حقيقة تاريخية فى الدين الإسلامى وإن لم تظهر فى الأديان الأخرى بسبب التلاعب الذى قام به رجال هذه الأديان كاليهودية والمسيحية السابقتين للإسلام فى الظهور .

والإيمان بهذه المذاهب المعاصرة لا نتائج إنسانية له ولا مدنية فيه ولا تراثا إنسانياً يورث عنه . ولولا قوة الحديد والنار لمانت الشيوعية . ولولا استعمار الاستهتار لماوجدت الوجودية . ولولا الأنانيةالاقتصادية والنزعة الصهيونية لما كانت الديمقراطية المضللة للغرب وأمريكا .

أرأيت يا صديق كيف نظم الدين الاستجابة الفطرية للاعتقاد وكيف أنه لم يكن قلبياً فحسب . بل فى كل مرافق الإنسان وقواه حتى تكون الحضارة والمدنية وإثراء البشرية بالعمران والازدهار والسلام .

وهذا الربط بين الإيمان والسلوك هو الذى ينمى الخير فى الفرد ويحفظ عليه ذاته الوجودية ويعطيه حقه فى الأبدية . ومن ذلك يكون السلوك الحسن الذى يتفق والأخلاق ولكنه لا يرتبط بالإيمان والعقيدة المستقيمة الواضحة ولا تنعشه نسمات الإيمان الرطبة الحبيبة .

هذا السلوك وإن بدا سويا فمثله كمثل التمثال الحجرى ولو كان من عمل بيكاسو . أما السلوك القيم حقيقة المرتبط بالإيمان الصحيح . فهو كالحقيقة الحية الواعية . الأول جاف صلب مهما بدت فيه الفنية وشاع الجمال . والثانى جميل حى عامل داع .

ومن هنا ياصديق لا نستطيع أن نفصل بين الدين كحقيقة كونية كبرى أنزلها رب الوجود لتنقش بها النفوس وتحيا القلوب ويكون العمران وتولد المدنية وبين السلوك القيم .

وسلوك الانجليزى هذا الغير مرتبط بالدين مهما بدت مثاليته وعظمت صورته مثله كمثل النمثال .

وهل كانت خلقية هذا الانجليزى عاصمة له عن الاستعمار وامتصاص دم الآدميين ؟ وهل مدنية الرجل الأبيض الآن وما تقوم به من أعمال وحشية هى الأخرى من مستلزمات خلقيتهم الرفيعة ؟ وهل سمعت بما يدور فى أفريقية . فى الجزائر والكونغو تلكم البلاد الأرضية لا المريخية . والسكان البشريين . لا الحيوانات ؟

ماذا وراء هذه المظاهرة الضخمة من الثورات الجانة . الجفة من الرباط الإنسانى الذى ينبع من القلب . إنه الإيمان بالإنسانية الذى ينبع من الإيمان برب الإنسانية . إنهما شىء واحد . وهل سمعت بقول نبى الدين الإسلامى الذى يحدد فيه الإنسانية ما صدق للإيمان العام . فبينا هو جالس فى صحابته . إذا به يقول . والله لا يؤمن ويكررها ثلاثا . فيقولون له ومن هو يارسول الله . فيقول والله لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه . وهكذا ياصديق كان الإيمان القيم والتنظيم القويم لاستجابة الإنسان للحياة فى رسالة الإسلام المسطورة فى القرآن الكريم .

وإلى اللقاء فى مقال قادم إن شاء الله ؟